تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٣)

٢٥/٦/١٤٣٦هـ

المعْلمُ الثالث[1]: العناية بالقرآن حفظًا وفهماً وعملاً:

في بدايات ما يُعرف بـ (الصحوة) في أوائل القرن الهجري الحالي، كانت العنايةُ بالحديث الشريف -تحقيقًا ونشرًا وحفظًا- قد بلغت غايتها، بعد عقودٍ وربما قرون من الركود العلمي العام، وفي الحديث بشكل أخص، وكان من مظاهر ذلك: إقبالُ عددٍ كبير من طلاب العلم على هذا التخصص، هذا الإقبال كان عند كثيرين على حساب الاهتمام بالقرآن الكريم من حيث الفهم والتدبر، فكان شيخنا يلحظ ذلك في الجو العام لعموم الحركة العلمية في ذلك الوقت، ويلحظه في عددٍ من طلاب العلم الذين قصدوه من آفاق شتى، وكانوا يَحضرون دروسه.

---

(١) أشرتُ في الجزءين الأول والثاني من هذه السلسلة إلى معلمين من معالم التميز في شخصية شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهما: (وضوح الهدف)، و(الثبات على المنهج والهدف الذي رسمه لنفسه)، وأتابع في هذا المقال ذِكر بعض تلكم المعالم.

هذه الملاحظة المســتمرة جعلتْ شــيخَنا لا يفوّت التنبيه على العناية بالأصــل الأعظم للدِّين، ومن تلكم الكلمات التي لا أزال أتذكرها تلك المقابلةُ التي أُجريَت مع شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضمن سلسلة (على طريق الدعوة) -قبل عشرين ســنة أو أكثر- وكان من أبرز ما رسخ في ذهني كلامُه عن هذه المسألة بشكل يلمس منه السامعُ خوفَه من اختلال الميزانِ عند بعض طلاب العلم، حيث تجده يُمضي الأيامَ والســنين في علم الحديث، ثم إذا جاء القرآنُ وجدتَه مقصِّرًا في مدارســة معانيه، وتدبر آياته! وكان شيخنا قــد أبدى فرَحَه بتلك العناية بالسُّــنة، لكنه لم يُخــفِ ألمه من التقصير في جانب العناية بتفسير كلام الله وتدبره.

وأما عنايتُــه وتوجيهه طلابَ العلم لتدبره؛ فكُتبه وتوجيهاته طافحةٌ بهذا، وأنتَ حــين تقرؤها تجدها كلــماتٍ فيها روحٌ، ونابعــةٌ من قلبٍ مجــرّب، قد تكون قصيرة، وســهلة في تراكيبها، لكنــك تلمس فيها لغةَ الصدق والنصح، كقوله: «اللهَ الله يا إخوان، بتدبر القرآن وتفهم معانيه، والتقرب إلى الله تعالى به، والعمل بما فيه، فهو -والله- سعادتكم في الدنيا والآخرة».

ويلحظ طالبُ العلم هذا المعنى حاضرًا في تعليقاته على الآيات، سواء فيما قصد به تفسير كتاب الله، أو كان ضمن كتابٍ مصنَّف وردت فيه آيةٌ من الآيات، ومن ذلك حين علّق على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[القمر:٢٢]، قــال: «أي: يسّر معانيه لمن تدبّره، ويسّر ألفاظَه لمن حفظه، فإذا اتجهتَ اتجاهًا سليمًا للقرآن للحفظ يسّره اللهُ عليك، وإذا اتجهتَ اتجاهًا حقيقيًّا إلى التدبّر وتفهّم المعاني يسّره الله عليك ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا

﴿ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ و(هل) للتشويق، يشوّقنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى أن ندكر القـــرآن، فنتعظ به، جعلنا الله ممن يتلونه حق تلاوته لفظًا ومعنى وعملًا، إنه على كل شيء قدير»[1].

وهذه العناية بهذا الأصل العظيم، ظهر أثرُها على تفسيره لما تيسر من القرآن، وعلى فتاويه، وكلماته، فضلًا على ما كان عليه شيخُنا من ملازمة وِردِه اليومـــي، فقـــد كان يختم كلّ عشرة أيام في غير أيام المواســـم، وفي رمضان يختم كل ثلاث.

ومن صـــور عنايته بهذا الأصـــل العظيم: أنـــه كان إذا دُعي لبعض المناســـبات طلب من أحـــد الحضور أن يقرأ آيات مـــن القرآن، ثم علّق عليها، وهكذا دأبه في لقائه الأسبوعي، فإن تعليقَه على جزء عمّ المطبوع، إنما هو مِن جمْع ما قاله في تلك المجالس، فخرج منها ذلك الكتاب الذي نفع اللهُ به نفعًا كثيرًا.

إن هذا المنهج العملي الذي سلكه شـــيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في دروسه وعموم المناســـبات التي يحضرهـــا، كان له أثرٌ في كثير ممن تلقّـــى عنه، في العناية بالقرآن، مـــع اختلاف تخصصاتهم الأكاديميـــة، أو مناصبهم الوظيفية، ولنِعْم الإرث هذا.

وخليق بطلاب العلم -مهـــما كان تخصصهم الأكاديمي الدقيق- أن يكون لهم نصيبٌ كبيرٌ من العناية بكتاب الله، فهو أصلُ العلوم ومنجمها، وأُسّها وأساسها.

---

(١) تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد (ص٢٨٤).

وإن ممـــا يُزري بطالب العلم: أن يكون مقـــصّرًا في حق القرآن تلاوةً وفَهمًا، بحجة أن تخصصه ليس في (قسم القرآن)، أو (القراءات)! فالقرآن كتابٌ يتجاوز كل التخصصات. وللحديث صلةٌ إن شاء الله.